الباب الأول

إعادة تدويل علاقة الدولة بالأقليات

١

مدخل

«لست أهدف في هذا الكتاب إلى تقديم رسم تخطيطي مفصل للمستقبل، بل بالأحرى إلى استكشاف العملية الجارية لتدويل التعددية الثقافية، والتعرف على التحديات والخيارات الصعبة التي تثيرها أمامنا»

المؤلف

شهدنا في الأربعين سنة الأخيرة ثورة حقيقية في جميع أنحاء العالم في العلاقات بين الدول والأقليات العرقية، فلقد بدأت تختفي النماذج القديمة للدولة القومية ذات النسيج المتماثل والمنسجم، كما ازدادت المنازعات حولها وراحت تحل محلها نماذج من التعددية الثقافية للدولة والمواطنة، وقد انعكس ذلك، على سبيل المثال، في التبني واسع الانتشار للتكيف الثقافي والديني عند الجماعات المهاجرة، وقبول حق استقلال الأراضي واللغة للأقليات القومية، والاعتراف بمطالب البلاد وحقها في الحكم الذاتي بالنسبة إلى الشعوب الأصلية.

وكثيرا ما كان هذا التغير نتيجة للعمليات السياسية المحلية التي تنشأ داخليا. وبعد فترة من المنازعات

والمفاوضات الداخلية، واستجابة لتحرك مكثف من بعض الأقليات، انتهى عـدد من البلدان إلـى أن النماذج القديمة لم تعد تتناسـب مع ظروفها التاريخية والسكانية الخاصة.

ولقد كان لهذا التغير التدريجي بعد دولي، كما كانت هناك منظمات دولية بين الحكومات تشجع الدول، وربما تضغط عليها في بعض الأحيان، لكي تتبنى منظور التعددية الثقافية أكثر مما تفعل. وسـوف تجد الحكومات - التي هي على اسـتعداد للنظر في مسـألة تبني المواطنة متعددة الثقافات - «طابورا» طويلا من المنظمات الدولية على اسـتعداد لتقـديم العون والمهارات الفنية، والخبـرة، والدعـم المالي، في حين أن الدول التي تمسـكت بالنظم القديمة في التماثل والتجانس والاسـتبعاد وجدت نفسـها خاضعـة للرقابة الدولية والنقد والجزاء. باختصار نحن نشاهد الآن ازديادا في تدويل علاقة الأقلية بالدولة. كما نشـاهد انتشـارا عالميا لفكرة التعدديـة الثقافية كإطار جديد لإصلاح هذه العلاقة.

وفي اسـتطاعتنا أن نفرق بين مسـتويين لفكرة التعدديـة الثقافية تصبح الفكرة عندهما عالمية أو كونية. أولا، هناك انتشـار كوني للخطاب السياسـي للتعدديـة الثقافية، هناك مجموعة منتشـرة من الأفكار حـول أهمية التكيف مـع الاختلاف والتنوع تناولتها شـبكات دولية غير حكوميـة، ويتناولها العلماء والباحثون، وواضعو الخطط السياسـية. والواقع أن في أي يوم من أيام السنة، وفـي أي مـكان من أرجاء العالم، نجـد أن هناك ندوة تُعقد أو تقريرا ينشـر يسـتهدف إذاعة أفكار عن التعددية الثقافية وممارستها. وهذه الأنشطة كثيرا ما تتضمن الاشـتراك في معرفة «أفضل الممارسـات» في البلـدان المختلفة، وبناء شـبكات تتجاوز الحدود الإقليمية من الخبراء، والدعاة، والمبدعين، وخلق مناطق آمنة للحديث في موضوعات حساسـة من الناحية السياسية ولتدريب المربين المحليين والبيروقراطيين، والمنظمات غير الحكومية والعاملين في أجهزة الإعلام على تحديات تكيف السكان مع التعددية الثقافية ومع التعدد العرقي.

ثانيـا، هناك تقنين للتعددية الثقافية في مجموعة من القواعد الدولية القانونية (أو شـبه القانونية) تتجسـد في إعلانات لحقوق الأقلية، ولقد شـهدت السـنوات الخمس عشـرة الأخيرة بصفة خاصة تكثيفا للجهود

وتنميـــة للمعايير الدولية لحقوق الأقليات على الصعيدين المحلي والكوني. أمـــا من الناحيـــة الكونية أو العالمية فقـــد تبنت الأمم المتحـــدة في العام 1992 إعلانا بشـــأن حقوق الأشـــخاص الذين ينتمون إلـــى أقليات قومية أو عرقية أو دينية أو لغوية، كما ناقشـــت مســـودة لإعلان حقوق الشعوب الأصليـــة، وهناك منظمات دولية أخرى بين الحكومات مثل «منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة» (اليونســـكو UNESCO) ومنظمة العمل الدوليـــة والبنـــك الدولي، طـــورت بدورها قواعد ومعايير جديدة بشـــأن حقوق الأقليات، وحقوق الشعوب الأصلية. كما كانت هناك أيضا مسودات إعلانات أعدتها منظمات المســـتوى المحلي، وذلك مثل إطار الاتفاق الذي أعده المجلس الأوروبي في العام 1995 لحماية الأقليات أو مســـودة إعلان حقوق الشـــعوب الأصلية التي أعدتها منظمة الـــدول الأمريكية في العام 1997، ومعظـــم هذه الاتفاقات والإعلانات لا يمكن فـــي الواقع، تنفيذها من الناحية القضائية، أعني أن الأفراد والجماعات لا يمكنهم الذهاب إلى أي محكمة دولية لإرغام حكوماتهم على الســـير طبقا لهذه القواعد. غير أنـــه لبعض هذه القواعد جوانب لاذعة أو قارصة؛ فالدول بالتدريج تراقب وتبين كيف يمكن لها أن تسير سيرا حسنا يتفق مع هذه القواعد، والفشل في تحقيق هذا التوافق لا تكون نتيجته الخضوع للنقد فقط، وإنما لعواقب ملموسة في بعض الحالات.

وإذا كان المستوى الأول يتضمن انتشار مجموعة من المثل العليا وأفضل الممارســـات التي لا بد من أن تتطلع إليها جميع الدول، فإن المستوى الثاني يحتـــوي على تقنـــين مجموعة من الحـــد الأدنى من المعاييـــر التي لا تقع تحتها دول قط. وهذه العمليات المزدوجة لانتشـــار فكرة التعددية الثقافية وحقوق الأقليات قد أعادت بطريقة أساســـية تشكيل التصورات والمفاهيم التقليديـــة لســـيادة الدولة، والقومية، والمواطنة ممـــا يدعم النظام العالمي للـــدول القوميـــة. ولا يدهشـــنا أن نجدها تُبدي قـــدرا ملحوظا من القلق والمقاومة؛ لأن الانتشار العالمي لفكرة التعددية الثقافية كان، ولايزال، محل نزاع عميـــق. ومع ذلك، فعلى الرغم من مغزى هذه الاتجاهات والمقاومات التي أبدتها، لم تكن هناك دراسة أكاديمية، للأسف، بشأن الانتشار الدولي

لفكـــرة التعددية الثقافية وحقوق الأقليات [1]. ولقد أجهدت الألفاظ التي صيغت بها هذه الإعلانات والاتفاقات الدولية المحامين الدوليين في تحليل العبـــارات كلمة كلمة [2]، لكننا لا نعرف شـــيئا عن القوى الاجتماعية التي أنتجـــت هذه الاتجاهات أو فوائدهـــا ومخاطرها، أو بدائلها التي رفضتها أو حجمها. وترتكز هذه الاتجاهات على بعض المزاعم حول «المشكلة» التي أثارتها العرقية والسياســـة العرقية، وحول «الحلول» المناسبة، غير أن هذه المزاعـــم نادرا ما تكون صريحة واضحـــة، دع عنك أن يكون من الممكن أن ندافع عنها.

وهدفـــي من هذا الكتاب هو التعرف على بعض الإحراجات الأخلاقية Dilemmas (*) والتعقيدات السياســـية التـــي تثيرها هذه الجهود الدولية لنشـــر التعددية الثقافية، وأعتقد أن هذه التطـــورات تقدمية في باطنها، فهـــي من ناحية تعد بحماية بعض الجماعات الضعيفة في العالم الحديث من الظلم الجســـيم الذي يحيق بها. لم تكن حـــال الأقليات العرقية جيدة تحت نظام وستفاليا Westphalia (**) لسيادة الدولة القومية، حيث توجه الخطـــط المختلفة نحو التماثل واســـتبعاد الأقليات باســـم بناء «دولة قوية متجانســـة»، ولقد أغمض المجتمع الدولـــي عينه تاريخيا عن هذه المظالم، لكـــن هناك في يومنـــا الراهن التزاما متناميا لعـــلاج هذا الموقف، ويتقبل المجتمـــع الدولي على نحو متزايد أن دراســـة الأقليات هي موضع اهتمام دولي مشـــروع وقانوني، وينبغي أن تخضع للمعاييـــر الدولية. وكحد أدنى فـــإن هذه المعاييـــر المتطورة تضع حدودا للوســـائل التي تســـتطيع الدولة الوستفالية القومية أن تســـتخدمها لمتابعة رؤيتها للانسجام القومي. غير أن هـــذه القواعد تقدم أيضـــا - على الأقل ضمنيا - رؤيـــة بديلة للدولة

(*) الإحراج الأخلاقي: موقف يجد فيه الإنســـان نفســـه أمام طرفين متقابلين لا مناص له من اختيـــار أحدهمـــا مع أنه لا يرضـــى بكليهما، وهو في المنطق ضرب من القيـــاس المركب يراد به إفحام الخصم [المترجم].

(**) وســـتفاليا Westphalia: منطقة تاريخية في الجزء الشـــمالي الغربي من ألمانيا، كانت في القرن الثاني عشر دوقية، ثم جعل منها نابليون بونابرت في العام 1800 مملكة ونصَّب عليها أخاه ملـــكا، وهي تؤلف منذ العـــام 1945 جزءا من ألمانيا الغربية قبل هدم الســـور ثم ضم هذا الجزء وســـقوط الاتحاد السوفييتي [المترجم]. والدولة الوستفالية مفهوم يقصد به سيادة الدولة القومية على أساس مبدأين: الإقليمية، واستبعاد الأطراف الخارجية من هياكل السلطة المحلية [المحرر].

الوستفالية التي ترى التنوع على أنه واقع حقيقي ودائم ويحدد سمة نظام الحكم، والتي تنظر إلى التسامح على أنه قيمة أساسية. إذا نظرنا إليه في هذا الضوء فإن الاتجاه نحو انتشار نماذج التعددية الثقافية يعد أمرا مرغوبا فيه.

وفضلا عن ذلك فإن التصور الجزئي للثقافات المتعددة الذي طورته المنظمات الدولية هو فيما أعتقد امتداد تقدمي من الناحية الأخلاقية لمعايير الحقوق الإنسانية القائمة. وهناك أمثلة كثيرة في جميع أنحاء العالم تستشهد فيها النخبة المحلية بحقوق الأقلية وبلغة التعددية الثقافية لكي يستمر تفاوت العرق والطائفة (أو الطبقة المغلقة Caste)، أو لجعل التراث والممارسات الثقافية الظالمة أمرا مشروعا [3]. غير أن المنظمات الدولية كانت حريصة على تجنب أمثال هذه التصورات القمعية غير الليبرالية لفكرة التعددية الثقافية. إن الخطابات السياسية والمعايير المشروعة للتعددية الثقافية، التي دفع بها القانون الدولي والمنظمات الدولية، هي تطور طبيعي ومنطقي لمعايير حقوق الإنسان العالمية، وهي تعمل داخل ضوابط تلك المعايير. وبهذا المعنى، فإنها تعمل على تعميق وتدعيم ثورة واسعة لحقوق الإنسان.

ولا يوافق الناس جميعا على ذلك، إذ ينظر بعض النقاد إلى الحركة العامة لنشر التعددية الثقافية وحقوق الأقليات على أنها خيانة للمثل العليا الأساسية للمجتمع الدولي، وترى «إيلين فينكلكروت» على سبيل المثال أن احتضان الأمم المتحدة فكرة التعددية الثقافية تضمن التخلي عن الفكرة الكلية العامة لعصر التنوير لمصلحة النسبية الثقافية:

> «لقد تأسست الأمم المتحدة لإشاعة المثل العليا الكلية لعصر التنوير الأوروبي، ولكنها الآن تدافع عن الأحكام العرقية المبتسرة، معتقدة أن للشعوب والأمم والثقافات حقا يجاوز حقوق الإنسان، ترفض جماعة التعددية الثقافية القيم الليبرالية باعتبارها عنصرية، في حين أنها تناصر الشوفينية Chaivinism الضيقة المتزمتة لكل ثقافة للأقلية» (فينكلكروت 1988).

والواقـع أن وثائـق الأمم المتحدة واضحـة فيما يتعلق بمعاييـر التعددية الثقافية، ولا يمكن أن تستخدم بطريقة تجاوز حقوق الرجل (أو المرأة). يذهب الإعلان العالمي لليونسـكو، بشـأن التنوع الثقافي، إلى أنه «لا يجوز لأحد أن يلجأ إلى التنوع الثقافي لانتهاك حقوق الإنسـان التي يضمنها القانون الدولي أو لكـي يحد من مجالهـا» (المادة 4). كما يذهب إعـلان الأمم المتحدة حول حقـوق الأقليات إلى أن أي حقوق أو واجبات معترف بها في هذا الإعلان «لن تحجب تمتع جميع الأشـخاص بحقوق الإنسـان والحريات الإنسانية المعترف بهـا عالميـا» (المادة 8 «2»). ويذهب اتفاق منظمـة العمل الدولية حول حقوق الشـعوب الأصلية إلى أنـه لا بد من احترام حق الشـعب الأصلي في تدعيم ممارسـاته الثقافية «مادامت لا تتعارض مع الحقوق الأساسـية التي حددها النظام القومي القانوني وحقوق الإنسان المعترف بها عالميا» (المادة 8 «2»). كما يذهـب المجلس الأوروبي الذي وضع إطار اتفاقية حقوق الأقليات القومية إلى أن الاتفاقية لا بد من أن تفسـر بطريقة تتناسـب مع الاتفاقية الأوروبية حول حقوق الإنسـان (المادة 23). والواقـع أن أي اتفاق أو إعلان دولي لهذه الأمور يشـير إلى الملاحظة نفسـها، فحقوق الأقليات والشعوب الأصلية هي جزء لا يتجزأ من الإطار العام للحقوق الإنسانية الأوسع، وهي تعمل داخل حدودها.

لقد أسـاء نقد فينكلكروت أساسا فهم كل من دوافع المنظمات الدولية للاهتمام بهذا المجال، كما أساء فهم مضمون حقوق الأقليات. إن الخطابات والقواعـد الدوليـة المنبثقة عن ذلك كله - كما سـوف أبـين فيما بعد - هي أساسـا ليبرالية الطابع، وهي بذلك تتسـق بصفة عامة مع نظريات «التعدديـة الثقافية الليبرالية» التي طورتها النظريات السياسـية الغربية الحديثـة، حيث تفهم التعددية الثقافية على أنها مفهوم يرشـده ويضبطه في آن معا الالتزام السياسي بمبادئ الحرية الفردية والمساواة [4].

وإذا كنـت قد دافعت عـن المثل الأعلى للتعدديـة الثقافية في كتبي - لاسـيما الكتاب الذي كتبته في العـام 1995 بعنـوان «مواطنة التعددية الثقافية: نظرية ليبرالية عن حقوق الأقليات» [*] - فقد ذهلت من الطريقة التـي أفاد بها هذا الكتاب كثيرا من المنظمات الدولية، وأميل إلى الاعتقاد

(*) Multicultural Citizenship: A iberal Theory of Minority Rights.

بأن انتشـــاره الكوني أمر مفيد ومرغوب فيه. والواقع أنني أشـــعر بسعادة غامرة لأنني كنت بمنزلة جندي مشـــاة في هـــذه العملية. بينما كان كتابي المبكر يركز علـــى المفارقات المحلية داخل الديموقراطيـــات الغربية، فقد طُلب مني آنذاك أن أناقش الصلة بين هذه الأفكار من أجل صياغة معايير دولية لحقوق الأقليات والانتشـــار العالمي لنماذج التعددية الثقافية وأفضل ممارســـاتها. ولقد أنفقت قـــدرا كبيرا من عملي فـــي العقود الماضية في الاشتراك في الندوات ومراقبة الجماعات في هذه الموضوعات فيما يقرب من اثنتي عشـــرة دولة، من إثيوبيا إلى أستونيا ومن سورية إلى سريلانكا، ومن المكســـيك إلى مولدوفا. ونتيجة لذلك فقد تابعت من كثب العمليات التـــي يتم من خلالها تداول مجموعة من المفاهيـــم والخطابات في جميع أنحاء العالم - أولا (وليس حصريا) من الغرب إلى الشـــرق، ومن الشمال إلى الجنوب - وانتشـــارها عبر الأوســـاط الأكاديميـــة، والمجتمع المدني، والبيروقراطية تحت مراقبة، وبمساعدة المنظمات الدولية [5].

بينما لا أزال متفائلا بشأن هذا الاتجاه العام، فإن ارتباكي بشأن الطريقة التي تتكشـــف بها هذه العمليات في ازدياد، كما أنني متشـــكك في اتجاه تلك العمليات، أو الاتجاه الذي يجب أن تسلكه. ولقد واجهت محاولات تدويل نزعة التعددية الثقافية وحقوق الأقليات حقل ألغام حقيقيا ممتلئا بخليط مضطرب من التصـــورات والمفاهيم، والإحراجات الأخلاقيـــة، والنتائج غير المقصودة، والتناقضـــات القانونية والتلاعبات السياســـية، ولا يتضح ما إذا كانت هناك خريطة طريق للإبحار وســـط هذه العقبات. وعندما واجهت الجهود الدولية هذه العقبات وصلت في بعض الأحيان إلى نهايتها، وفي أحيان أخرى انحرفت عن الطريق القويمة. ولســـتُ أهدف في هذا الكتاب إلى تقديم حلول سحرية لتخطي جميع هذه الصعاب - ففي اعتقادي أن بعضها على الأقل، غير قابل للحل في المســـتقبل المنظور - بل أن أتعرف بوضوح أكثر على التحديات التي تثيرها الشراك المنصوبة أمامنا لو أننا تجاهلناها.

ســـوف أناقش عددا من هذه المشـــكلات طوال هذا الكتـــاب، وهي تقع بصفة عامة تحـــت عناوين ثلاثة. أولا: هناك مشـــكلة الفئات Categories، فهـــل الهدف هو قواعد ومعاييـــر يمكن أن تنطبق على جميع الأقليات، أم أن

الهـدف هو صياغة قواعد مختلفة لأنـواع متعددة من الأقليات. مثلا، وضع قواعـد مختلفة للجماعات المهاجرة والأقليات القومية والشـعوب الأصلية. لقد تبادلت المنظمات المختلفة الأدوار بين هذين الخيارين اللذين سوف أطلق عليهما المقاربة «العامة» والمقاربة «الهادفة»، وليس ذلك في حد ذاته مشـكلة بالضرورة، مادام أي تصور معقول لمفهوم التعددية الثقافية الليبرالية سـوف يشـمل في الأغلب توليفة مـن المبادئ العامة والهادفـة، أو الغرضية. ولكن الطريقـة التي يتم مـن خلالها تحديد وتمييز الفئـات الهادفة، كما أعتقد، تعسفية وغير مبررة. وترتكز القواعد الدولية الحالية حصريا على ثلاث فئات هي: الأقليات، والأقليات القومية، والشـعوب الأصلية، وليس في اسـتطاعة هذه الفئـات أن تعمل العمل المطلـوب منها. ثانيا: هناك مشـكلة الظروف والترتيب بالتعاقب، بديهي أن التعددية الثقافية الليبرالية يسـهل تبنيها من قبل أنظمة ديموقراطية حيث يكون القانون وحقوق الإنسان مصونين، أما في البلاد التي لا توجد فيها هذه القواعد الأساسـية للديموقراطية الليبرالية، فقد تكون في حاجة إلى توافر مسـتوى معين مـن الديموقراطية الليبرالية قبل أن يكون هناك أي معنى للدفع نحو التطبيق الشـامل للتعددية الثقافية الليبرالية. ومع ذلك فإن مشكلة الصراع العرقي العنيف، والحاجة إلى العثور علـى طرق للتعايـش العرقي غالبا ما تكونان أكثر ضـراوة في البلدان ذات الديموقراطيات الضعيفة. أيكون الهدف عندئذ هو صياغة قواعد تطبق عالما يتحقق فيه مستوى معين من الديموقراطية، أم يكون الهدف هو كبح الصراع العرقي أو حله في الدول ذات المستويات المتفاوتة من الديموقراطية؟

لقـد تناوبت المنظمات الدولية بين هذين المنظورين، أحيانا بإقرارها لـ «أعلى المعايير» لحماية الأقليات في المجتمعات الديموقراطية الحرة، وأحيانـا بإقرار الحد الأدنى من قواعـد التعايش العرقي التي يمكن أن نتوقعها في أي بلد. ومرة أخرى ليست هذه مشكلة ملازمة؛ فأي منظور معقـول لحكم التنوع العرقي سـوف يحتاج إلى الجمع بـين المثل العليا طويلـة الأمد والتوصيـات البرغماتية قصيرة الأمـد. غير أن الطريقة المحددة التي جمعت بها هذه المثل، فيما اعتقد، ليسـت متماسـكة وقد تكون غير منتجة.

ويعكس عجز المجتمع الدولي عن مواجهة مشكلتي الفئات والظروف معضلة ثالثة أكثر عمقا: هي العلاقة بين العدالة والأمن تتضمن القواعد والمعايير الدولية على صورة واعدة للمستقبل، حيث يعترف بالأقليات العرقية والسكان الأصليين على أنهم ممثلون شرعيون، وشركاء متساوون في الحكم في المجتمعات الديموقراطية. غير أن هذه الرغبة المتفائلة لخلق مساحة أوسع لسياسة التعددية الثقافية الديموقراطية تشوبها مخاوف قوية من أن السياسات العرقية كثيرا جدا ما تكون قوة مزعزعة للاستقرار، تضعف الديموقراطية والتنمية، وبالتالي لا بد من احتوائها. فهل الهدف هو أن نفتح المجال لسياسات التعددية الثقافية الديموقراطية النابضة بالحياة، أم أن الهدف هو كبت واحتواء الحراك العرقي المزعزع للاستقرار؟ تتناوب المنظمات الدولية بين هذين المنظورين كما يجب، مادام المنظوران كلاهما يمثلان جوانب من الواقع المعقد للسياسات العرقية المعاصرة. ولكن كثيرا ما أزاحت المخاوف الأمنية اعتبارات العدالة، مشوهة بذلك القرارات الخاصة بكل من الفئات والظروف، فجاءت النتائج مسيئة لا إلى العدالة فقط، بل إلى الأمن كذلك، وهنا المفارقة.

لقد اتخذت المنظمات الدولية قرارات حول هذه المسائل جميعا كان لها مغزى في لحظة معينة من الزمن، كاستجابة برغماتية للتحديات المباشرة، غير أن النتيجة المتراكمة خلقت بنية للمعايير الدولية غير قابلة للاستمرار على المدى الطويل. وليس ثمة حلول بسيطة وسهلة لأي من هذه المعضلات، ولو أن هذه المقاربات الحالية قد ضحت بالعدالة من أجل برغماتية قصيرة الأمد، فإن بعض البدائل المقترحة تشكل مخاطرة عالية جدا على السلم والأمن، والطريقة المثلى للتقدم ليست واضحة تماما. وهي ريبة يعززها الغياب الفعلي لأي مناقشة أكاديمية جادة حول هذه الموضوعات [6].

غير أن الواضح هو أن الوضع القائم غير قابل للاستمرار. والواقع أن المثالب قد ظهرت بالفعل. ولو أننا أردنا أن نحتفظ بتجربة تدويل التعددية الثقافية وحقوق الأقليات، فإننا نحتاج إلى التفكير طويلا وبعمق في الأهداف التي نحاول أن نبلغها في هذه التجربة والمخاطر المستحقة لهذه المحاولة.

إن تدويل التعددية الثقافية موضوع ضخم ومتشعب، ولا أتطلع إلى تغطيته من جميع جوانبه. ومن ثم فأنا بحاجة إلى قول بضع كلمات عن النقطة الأساسية لما أطرحه. وإلى تحديد بعض المصطلحات الأساسية، فيما يتعلق بكل من التدويل و«التعددية الثقافية». لقد تحدثت بالفعل بطريقة فضفاضة عن «الممثلين الدوليين». وعن «الشبكات الدولية»، و«المنظمات الدولية»، بل حتى عن «المجتمع الدولي»، وقد يعجب القراء ويتساءلون: ما الذي تشير إليه هذه المصطلحات السديمية الغائمة؟ إن محوري الرئيسي في هذا الكتاب يدور حول المنظمات الدولية ما بين الحكومات (أو اختصارا IOs) (*) التي أقامتها معاهدات بين دول العالم القومية، إما على المستوى الدولي (مثل الأمم المتحدة، والبنك الدولي، ومنظمة العمل الدولية)، وإما على المستوى الإقليمي (مثل منظمة الولايات الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، والاتحاد الأفريقي)، المفوضة للحديث والعمل بالنيابة عن دولها الأعضاء. إن قرار هذه المنظمات الدولية لصياغة المقاييس والمعايير الخاصة بالتنوع العرقي، مستخدمة سياسة العصا والجزرة (الترغيب والترهيب) لتنمية وتشجيع نماذج معينة لحكم التنوع، هو قرار مصيري، كما أعتقد، ويؤدي إلى ظهور المفارقات والمعضلات التي ذكرتها للتو.

وبالطبع حتى لو أن هذه المنظمات تسعى إلى صياغة المقاييس والمعايير في هذا المجال، فسوف يظل هناك كثير من القنوات غير الرسمية سوف تنتشر بواسطتها أنماط من التعددية الثقافية في جميع أنحاء العالم (IOs)، وبدعم هذه المنظمات أو من دون دعمها، فإن الممثلين المختلفين في كل بلد سوف يمعنون النظر في تجربة البلدان الأخرى باحثين عن أفكار مناسبة، وحلفاء محتملين بطرق مدروسة دراسة جيدة في أدبيات «نقل السياسة» (مثلا ويلاند 2005، ستون 2004. دولوتز ومارش 1995، جيمس ولودج 2003). غير أن واقع المنظمات الدولية (IOs) كمتحدث بلسان «المجتمع الدولي» تفويضا لوضع «معايير دولية» يثير المخاطر الأخلاقية والسياسية.

يمثل الادعاء بأن هذه المنظمات تتحدث بلسان «المجتمع الدولي» إشكالية، والواقع أن مصطلح «المجتمع الدولي» هو اسم على غير مسمى، بقدر ما ستحضر صورة عن عالم تسوده الصداقة بين الدول بناء على

(*) Intergovernmental Organizations.

الاحترام المتبادل والقيم المشتركة. والواقع أن نظام العالم يتسم بانقسامات أيديولوجية، وبعلاقات الشك والريبة وانعدام الثقة والخصومة المتبادلة، إن لم يكن الاستغلال، مدعومة بواسطة التفاوت الخطير من حيث القوة والتأثير. وقد يزعم قادة الأمم المتحدة أنهم يتحدثون بلسان «نحن الشعب» (الأمم المتحدة العام 2000) ويعكسون إجماع شعوب العالم ومجتمعاته. غير أن الأغلبية العظمى من شعوب العالم ليس لها سوى القليل - وربما لا شيء - في تشكيل سياسات الأمم المتحدة. تعكس أنشطة الأمم المتحدة وخططها اللاتماثل في القوى الدولية، مميزة آراء ومصالح الغرب. ولا شك في أن ذلك صحيح في مجال التعددية الثقافية، حيث نجد أن المعايير والمقاييس قد تشكلت - إلى حد كبير جدا - من التجارب والخبرات الغربية، مع مساهمة ضئيلة من بقية أنحاء العالم. وكما سنرى فإن المعايير التي تقدمت باسم «المجتمع الدولي» قد تمت مقاومتها ورفضها في أجزاء كثيرة من العالم، بوصفها تعكس - ببساطة - تحيزات الغرب وهمومه.

ولقد أدى هذا اللاتماثل الدولي ببعض المعلقين إلى القول إن علينا أن نستبدل الحديث عن «المجتمع الدولي» بالحديث عن «القوى الغربية»، أو حتى «الهيمنة الأمريكية». ومن وجهة النظر هذه فإن المنظمات الدولية تكون أساسا وسائل لتقدم المصالح السياسية الجغرافية للدول الغربية الأكثر قوة، وليست آليات لتوحيد وتنمية القيم المشتركة لشعوب العالم. ومن ثم فإن نشرها للتعددية الثقافية هو جزء من «دهاء العقلية الاستعمارية» (انظر بورديو، وكوانت 1999). لكن إن كان من السذاجة افتراض أن المعايير التي تبنتها التعددية الثقافية تعكس ضربا من الإجماع الدولي الأصيل، فمن الخطأ كذلك أن نتعامل معها بوصفها مجرد تعبير عن الهيمنة الغربية. فالدول الغربية ذاتها منقسمة بعمق بشأن جدارة المعايير الدولية لحقوق الأقلية، كما أنها لا تسيطر باستمرار على الطريقة التي تتطور بها هذه المعايير. فمثلا، عندما جاء دور التصويت على مسودة إعلان حقوق السكان الأصليين في مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في يوليو 2006، تبنته ودعمته الدول النامية في مقابل اعتراض كثير من البلدان الغربية، بما فيها الولايات المتحدة، وكندا، ونيوزيلندا، وأستراليا [7].

على حين أن خطط المنظمات الدولية لتنمية وتشجيع التعددية الثقافية لا تعكس قيم «المجتمع الدولي» المتحد [8]، ولا هي ببساطة تحسب حساب الخطة الأجنبية لدولة مهيمنة أو لتكتل قوي. والواقع أن المنظمات الدولية كثيرا ما طورت هذه المعايير لأسبابها الداخلية الخاصة، لتحقيق خططها وأجندتها المؤسسية. وفي كثير من الحالات أعطت الدول الأعضاء القوية السلطة والتشجيع لعمل شيء ما بالنسبة إلى التنوع العرقي، وكثيرا ما تكون استجابة لبعض الأحداث أو الأزمات الدولية الخطيرة (مثل أزمة دول البلقان في أوائل تسعينيات القرن الماضي) [*]. لكن ما انتهوا إليه بصدد التنوع لم يكن مقدرا سلفا، ولم يكن من الضروري أن يحاولوا صياغة معايير ومقاييس معينة، أو أن تستخدم هذه المقاييس المقولات والمفاهيم التي انبثقت حديثا. إن المنظمات الدولية مقيدة بواقع سياسي جغرافي أوسع، ولكن داخل هذه القيود، هناك مساحة مهمة للتجاوب مع مسائل التنوع العرقي وفقا لمنطق المنظمة المؤسسي. ولقد انعكس ذلك في اختلاف الطريقة التي نظرت المنظمات المختلفة بها إلى التنوع العرقي، فمنظور البنك الدولي إلى التنوع العرقي يختلف، مثلا، عن منظور اليونسكو، الذي يختلف من ناحية أخرى عن منظور «منظمة العمل الدولية»، على الرغم من أنها جميعا مدينة للمجموعة نفسها من الدول الأعضاء القوية. وبينما اتخذت كل تلك المنظمات خطوة أكبر باتجاه مساندة التعددية الثقافية. فإنها تدرك مشكلة التنوع العرقي بطرق مختلفة، ومن هنا فهي تقدم حلولا مختلفة تعكس مراسيمها المؤسسية المختلفة وثقافتها البيروقراطية.

في دراسة حديثة لميشيل بارنت، ومارثا فينمور، أظهرت أن الاستقلال الذاتي للمنظمات الدولية كان دائما موضع تقدير بخس من العلماء المعلقين الذين يعالجون سياساتها على أنها ببساطة نتيجة للمفاوضات بين الدول الأعضاء القوية (بارنت ومارث فينمور 2004). وهذه الخطط، في الواقع، كثيرا ما تكون نتيجة للصراعات داخل المنظمة ذاتها بمحاولة فريق العمل إعطاء معنى لتفويضهم، والدفاع عن ملعبهم، والدفع بوظائفهم ومثلهم العليا إلى الأمام. ولم تساعد المنظمات الدولية فقط في تحديد

(*) دول البلقان هي ألبانيا، وبلغاريا، واليونان، ورومانيا، ويوغسلافيا كانت بينها تحالفات ومواثيق وحروب مستمرة طوال القرن العشرين [المترجم].

الحلول المقبولة لمشكلات العالم، لكنها تساعد أيضا في تحديد وتعريف هذه المشكلات في أول الأمر، عن طريق تشكيل إطار مفاهيمي لوصف الموضوعات وتحديد المخاطر والفرص.

إن التطور الحديث للمعايير والمقاييس الدولية فيما يتعلق بالتنوع العرقي يزودنا بكثير من الأمثلة على هذه الدينامية. وأحد الأمثلة التي سوف أناقشها بشيء من التفصيل في الفصل السابع هو التغيرات الدرامية في الطريقة المختلفة التي تفهم بها المنظمات الدولية فئة «السكان الأصليين»، وفي الطريقة التي يميزون بها - أو لا يميزون - حقوق السكان الأصليين عن الأنواع الأخرى من الجماعات العرقية الثقافية. وعلى قدر ما أستطيع أن أقول، فإن تلك القرارات تعكس أولويات المنظمات الدولية وإجراءاتها الداخلية، أكثر من إملاءات الدول الأعضاء القوية. والواقع يبدو أن للمنظمات الدولية استقلالا ذاتيا ملحوظا في تحديد موقفها من المعضلات الثلاث - التي تحدثت عنها فيما سبق - أعني كيف نصنف الأقليات وكيف نجمع الحقوق العامة والحقوق المستهدفة، وكيف نجمع بين درء الصراع قصير الأمد مع المثل العليا طويلة الأمد، وكيف تتكامل الآمال لعدالة أعظم مع مخاوف انعدام الأمان. ولا يوجد قرار من هذه القرارات مقدر سلفا بواسطة قوى خارج المنظمات المحترمة، فهي تنبثق من الطريقة التي تحلل بها المنظمات الدولية نفسها مشكلة التنوع العرقي وتحدد الحلول الممكنة لها.

وأنا اعتقد أن، لسوء الحظ، المنظمات الدولية كثيرا ما مارست استقلالها الذاتي بطريقة حبستها في ألغاز أخلاقية وغايات سياسية ميتة؛ مما عقد آمالها من أجل الانتشار العالمي للتعددية الثقافية الليبرالية. وهذا ما سوف أذهب إليه في هذا الكتاب. ولا أريد أن أبالغ في مساحة هذا الاستقلال الذاتي. إذا سلمنا بالتفاوت العميق والتطاحن في النظام العالمي، فإن هناك حدودا بنيوية للمدى الذي تستطيع فيه المنظمات الدولية أن تخدم كقنوات من أجل التغير التقدمي، بما في ذلك موضوعات التنوع العرقي. لكن المنظمات الدولية تؤثر داخل هذه الحدود في الممثلين الدوليين، بقدر كاف من الاستقلال الذاتي للقيام بمساهمة ذات مغزى، جيدة أو سيئة، للطريقة التي تُفهم بها موضوعات التنوع العرقي وتحل في جميع أنحاء العالم.

فـــي حين أنني أتحدث عن المنظمات الدولية ما بين الحكومات على أنها محور أولي لدراســـة تدويل التعددية الثقافيـــة، فإن هذه المنظمات لا تتخذ قراراتهـــا منفردة. إذ الواقع أن لديها عادة فريق عمل صغيرا ذا خبرات في المجـــالات ذات الصلة. وبالتالـــي فإن مجهوداتها في التعـــرف على المعايير وتطويرها قد اعتمدت بشـــكل كبير على مشـــاركة الممثلـــين الآخرين. فقد جندت المنظمات الدولية الأكاديميين ومراكز الأبحاث، والمؤسسات الخيرية، وجماعات الدفاع المحترفة، ليجلســـوا في فرق كاستشاريين يصوغون أوراق العمل ويعملون كشـــركاء في مشاريع وبرامج مترابطة [9]. ولقد خلقت هذه الروابط ما أطلق عليه كوفي عنان اســـم «شبكات السياسة الدولية» (الأمم المتحـــدة العام 2000)، التي تركزت حول «المنظمات الدولية» (IOs)، لكنها امتـــدت إلى الأوســـاط الأكاديمية والمجتمع المدني، وعملـــت على مجموعة مشتركة من المشـــكلات ذات مجموعة مشتركة من الافتراضات والأهداف. والواقع أننا كثيرا ما نجد صعوبة في تمييز الترابط والاعتماد المتبادلين بين هذه الشـــبكات. إن جميع الفواصل ما بـــين ممثلي المنظمات غير الحكومية (NGO) والأكاديميين والبيروقراطيين الدوليين تنهار عندما ننظر إلى الأفراد المشاركين. وتتحرك الصفوة بين هذه الأدوار بسهولة مدهشة (أو تتولاها في وقت واحد). ولقد أظهر نيكولاس غيلهوت (Nicolas Guilhot) في دراسته بشأن «صناع الديموقراطية» في الولايات المتحدة أن الصفوة تتحرك بحرية في الأوســـاط الأكاديمية والمنظمات الخيرية والوكالات الحكومية ومجالس المنظمـــات غير الحكومية (غيلهوت 2005، قارن مع ديزلي وغارث 2002). وعلى ما أعلم لم يقم أحد بدراســـة مماثلة عن صياغة الشـــعب لسياسات دعم التعددية الثقافية على المســـتوى الدولي، ولكن الدلائل تشير إلى نموذج مماثل تدور فيه الصفوة بين أنواع مختلفة من الممثلين الدوليين، من الوسط الأكاديمي، والمجتمع المدني إلى المنظمات الدولية والعكس.

وباختصار، في اســـتطاعتنا أن ننظر إلى «المنظمات الدولية» على أنها العمود الفقري لشبكة أكبر من الممثلين الذين جُنِّدوا (أو تطوعوا) في مشروع صياغـــة معايير ومقاييس خاصة بحكم التنـــوع العرقي. ولو أن «المنظمات الدولية» تعثرت في جهودها - لو أنها أخطأت في تناول مشـــكلات الفئات

والظروف - فإن جزءا من التفسير على الأقل هو أنها تلقت نصائح خاطئة من شبكة الأوساط الأكاديمية والمؤيدين، والمتبرعين لها. أو ربما تلقت نصائح قصيرة النظر تركز بصفة خاصة على التحديات المباشرة من دون أن تهتم كثيرا بالأهداف التي وضُعت والتحمل بعيد المدى.

وأضيف بسرعة أنني عرضة لهذا النقد، فما لم أكن عضوا يحمل بطاقة عضوية في شبكات السياسة الدولية تلك، فأنا على الأقل مرافق جوال، وأحد الدوافع التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب هو الشك المتزايد بشأن كيف يمكن لي أو لغيري من الأكاديميين الآخرين أن نسهم على نحو أفضل في هذه الجهود الدولية؟! لقد وجدت نفسي أكتم أسئلة صعبة عن الأهداف والاستمرارية بعيدة المدى للهيكل المنبثق من معايير ومقاييس حقوق الأقليات. وفي الاجتماعات وورش العمل المختلفة التي التحقت بها. كثيرا ما شعرت باتفاق صامت لتجاهل الفيل تحت المنضدة (أي تجاهل مشكلات أعظم مستترة!).

والواقع أنني مازلت مترددا في إظهار ما أشعر به من قلق، بما أن الوقت لا يبشر بالخير للمدافعين عن تدويل التعددية الثقافية. وكما سنرى في الفصل الثاني، فقد كان الأمر مصادفة إلى حد ما أن مهدت المنظمات الدولية الطريق لصياغة المعايير والمقاييس المتعلقة بالتنوع العرقي، وهناك كثيرون ممن سيرحبون بأي عذر لإلغاء هذه التجربة. وبعد فترة مبدئية من التفاؤل بالأمل في تقوية دائمة للنظام الدولي لحقوق الأقليات، فإن معظم المدافعين لا يأملون الآن إلا في المحافظة على الوضع الراهن، أيا كانت حدوده وعيوبه. وهم يخشون أن تؤدي مطالبة «المنظمات الدولية» بمراجعة أهدافها وافتراضاتها - فيما يتعلق بالمعايير والمقاييس - إلى إضعافها لا تقويتها [10]، والوضع الراهن في هذه الزاوية هو أفضل ما يمكن أن نصل إليه على الأقل في المستقبل المنظور، وينبغي علينا أن نعمل من أجل زيادة التحسينات ضمن الوضع الحالي بدلا من العودة إلى المناقشات حول التصنيفات والمفاهيم المستخدمة.

وهأنا أشارككم تشاؤمي حول احتمال إعادة تفكير جذرية للإطار الدولي لحقوق الأقليات. ولو أنني اعتقدت أن الوضع الراهن قابل للاستمرار، فربما احتفظت بمخاوفي لنفسي. إن إطار المعايير والمقاييس السائد قد ساعد

بلا شك بعض الجماعات التي كانت مهمشة تاريخيا، أجدرها بالذكر السكان الأصليون في أمريكا اللاتينية، كما ساعد عموما في إجازة إقامة الدعاوى من قبل الجماعات العرقية، باعتبارها جزءا طبيعيا وشرعيا من السياسات الديموقراطية، ولا تعد هذه إنجازات بغير قيمة، بل تستحق الدفاع عنها. لكن يزداد اقتناعي بأن الوضع الراهن غير قابل للاستمرار، وأننا نحتاج إلى البدء في التفكير في كيفية الاستجابة عندما تظهر التصدعات.

وهكذا عندما أناقش تدويل التعددية الثقافية، فإنني أركز أولا على «المنظمات الدولية» التي صاغت المعايير والمقاييس في مجال التنوعات العرقية، وثانيا على شبكات السياسة العالمية التي تساعد «المنظمات الدولية» في هذه المحاولة. تملك تلك المنظمات تفويضا للحديث نيابة عن الدول الأعضاء، وهي بذلك تمثل المجتمع الدولي. وإذا كان من السذاجة أن نأخذ هذا الادعاء بمعناه الظاهري، فمن الخطأ أيضا أن نتجاهل أهميته. ووفقا لمصطلحات جيفري شيكل (Jeffray Checkel)، فإن «المنظمات الدولية» هي «صانعة معايير»، ويفترض أن تكون الدول حول العالم «متلقية للمعايير» (شيكل 1999)، وهذه العلاقة هي المفتاح لفهم مفارقات السياسة الدولية الجديدة للتنوع.

وهناك توضيح آخر يتعلق باستخدامي لمصطلح «التعددية الثقافية»، وادعائي أن «المنظمات الدولية» منخرطة في «تعزيز التعددية الثقافية». وأنا أستخدم مصطلح «التعددية الثقافية» كمصطلح شامل يغطي مساحة واسعة من السياسات التي تستهدف توفير مستوى معين من الاعتراف العام، ومساندة المجموعات العرقية الثقافية غير المسيطرة، سواء كانت هذه الجماعات أقليات «جديدة» (كالمهاجرين واللاجئين) أو أقليات قديمة (كالأقليات المستقرة تاريخيا والسكان الأصليين). وهذا يغطي أنواعا مختلفة من السياسات لأنواع مختلفة من الأقليات، ويدور جزء كبير من هذا الكتاب حول فحص الكيفية التي تواجه بها المعايير الدولية هذه الاختلافات. إن ما هو مشترك بينها جميعا هو أنها تجاوز حماية الحقوق المدنية والسياسية المكفولة لجميع الأفراد في دولة ديموقراطية ليبرالية، لتمتد إلى مستوى ما من الاعتراف العام ومساندة الأقليات العرقية الثقافية في الحفاظ على هوياتها والتعبير عنها وعن ممارساتها المميزة.

كثيـــر من الإعلانات والمؤتمرات التي تبنتها «المنظمات الدولية»، وكذلك قوائمها الخاصة بالتوصيات وأفضل الممارســـات، تدعم التعددية الثقافية بهـــذا المعنى. وعلى حين أنهـــا تؤكد المبدأ القائل إنـــه لا يجوز التمييز بين الأفراد بناء على جنسهم وعرقهم، فإنهم يجاوزون ذلك لتشجيع السياسات التـــي تقدم حماية إيجابية تعزيزا للتنوع الثقافي العرقي. ولو أن «المنظمات الدولية» أرادت ببســـاطة أن تؤكد من جديـــد مبدأ عدم التمييز، فلن تكون ثمة حاجة إلـــى إصدار إعلانات جديدة أو عقد مؤتمـــرات جديدة، مادام هذا المبدأ قد اســـتقر بالفعل في العديد من الوسائل الدولية، منذ إصدار الإعـــلان العالمي لحقوق الإنســـان في العام 1948 إلـــى الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشـــكال التمييز العنصري في العام 1966. وما تضيفه الإعلانات والاتفاقيات الجديدة هو ضرب من الاعتراف الإيجابي أو الدعم والمســـاندة للتنوع الثقافي العرقي، الذي يصنفها كـــ «متعددة ثقافيا» وفق تعريفي لهذا اللفظ.

وأنا أعترف بأن «المنظمات الدولية» نادرا ما تستخدم مصطلح «التعددية الثقافية» فـــي نصوص معاييرها وقواعدها، لكنها تســـتخدم مصطلحات أخـــرى مثل «حماية وتعزيز التنوع الثقافي»، «حماية وتعزيز لغات الأقليات واللغـــات المحلية»، «حماية وتدعيم حقوق الأفراد الذين ينتمون إلى أقليات قوميـــة أو عرقية أو دينية أو لغوية»، وكذلك واجب «الاعتراف ومســـاندة وتدعيـــم وتعزيـــز دور الســـكان الأصليين»، أو «تمكين الســـكان الأصليين ومجتمعاتهـــم»... إلى آخره، وكل هذه أمثلة لمصطلح التعددية الثقافية كما أستخدمه، حتى لو لم تستخدمه «المنظمات الدولية».

أحد الأسباب وراء عدم استخدام المنظمات الدولية لمصطلح «التعددية الثقافيـــة» هو ما يحملـــه من دلالات محدودة في كثير مـــن البلدان. ففي أوروبا، على سبيل المثال، كثيرا ما نراه كمصطلح خاص بالعالم الجديد ولا يغطي الأفكار الأوروبية القديمة عن «حماية الأقليات». وحتى داخل العالم الجديد، لا يستخدم مصطلح «التعددية الثقافية» إلا في سياق الجماعات المهاجرة، بحيث لا يغطي السياســـات نحو السكان الأصليين. ويصدق ذلك على كل من نيوزيلندا وكندا. أما في أمريكا اللاتينية فإن مصطلح التعددية

الثقافيـــة (وكذلك مصطلـــح الكثرة الثقافية) يســـتخدم، على العكس، في الأعم الأغلب، حصريا، للإشـــارة إلى دعاوى الســـكان الأصليين، بدلا من الإشارة إلى جماعات المهاجرين.

وإذا ما قدمنا هذه الألوان المختلفة من الفهم لـ «التعددية الثقافية»، فإننا نغامر بالوقوع في ســـوء الفهم إذا ما اســـتخدمناه كمصطلح شامل، وسوف يكون من الأفضل أن نجد مصطلحا أكثر اتســـاعا وشـــمولا. ولسوء الطالع، فإن جميع المصطلحات سوف تصطدم بهذه المشكلة، فبعض الشعـوب - على سبيل المثال - تستخدم مصطلح «حقوق الأقلية» ليغطي دعاوى كل الجماعات العرقية الثقافية التي ليست لها سيادة، سواء كانت جديدة أو قديمة (كما فعلت أنا نفسي في مرحلة أعمال مبكرة). ولقد ثبت أن هذا المصطلح متنازع عليه. فمن ناحية لا يمكن إدراج جميع السياسات التي تدفعها وتعززها «المنظمات الدولية» تحت لغة «الحقوق». وفضلا عن ذلك، فمصطلح «الأقليات» مصطلح إشكالي، ففي بعض البلدان، مثل المملكة المتحدة، نجد أن مصطلح الأقليـات لا يســـتخدم إلا للإشـــارة إلى الجماعات المهاجرة ولا يطلق على الجماعات الأقدم في التاريخ، في اسكتلندا وويلز مثلا. وفي النمسا، بالمقابل، يستخدم مصطلح «الأقليات» عادة للإشارة إلى جماعات مستقرة من الناحية التاريخية مثل الســـلوفينيين (Slovenes)، لا إلى الجماعات المستقرة حديثا. ويرفض السكان الأصليون في كثير من البلاد مصطلح «الأقليات»، ويفضلون مصطلح الشعب أو الأمة، لأسباب سوف أناقشها فيما بعد.

وقد اقترح باحثون آخرون بدائل أخرى تصلح مصطلحات شاملة تستطيع أن تغطي القضايا التي أثارتها الأنواع المختلفة من التنوع الثقافي العرقي، مثل «سياســـات التنوع» و«الحقوق الثقافية» و«حقوق الجماعة» و«حقوق المجتمع» و«المواطنة المتميزة» و«الكثرة الدستورية» و«الكثرة الليبرالية» إن شئنا أن نذكر بضعة أســـماء فقط، وتعاني جميع هذه المصطلحات من إمكان إساءة فهمها، وهو ما لن أعرضه هنا، وعلى أي حال فهي أقل استخداما من قبل المنظمات الدولية من «التعددية الثقافية». وعلى ذلك، ففي غياب البديل المقبول بصفة عامة، فإنني ســـوف أتمســـك بمصطلح «التعددية الثقافية»، على الرغم من قصوره. لكني آمل أن يضع القارئ في ذهنه أنني أستخدم المصطلح فقط على

سـبيل الاختزال لمفهوم شامل يغطي مساحة واسعة جدا من السياسات التي تبنتها وطالبت بها أنواع مختلفة من الجماعات الثقافية العرقية، بما في ذلك «الأقليات» و«المهاجرون»، و«الجماعات الوطنية» و«السكان الأصليون».

والواقع أن المنظمات الدولية نفسها ينتهي بها الأمر أحيانا إلى استخدام مصطلح التعددية الثقافية بهذه الطريقة نفسـها. عندما أرادت مجموعة عمـل من الأمم المتحـدة مهتمة بالأقليات أن تستكشـف مضامين معايير الأمم المتحدة ومقاييسـها للأنواع المختلفة للجماعات العرقية الثقافية في أفريقيا، نظمت سلسـلة من ورش العمل سـميت باسم «التعددية الثقافية في أفريقيا» [11] وبالمثل عندما صدر تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية حول التنوع الثقافي، نظرت إلى الجماعات المهاجرة والجماعات القومية، والسـكان الأصليين، ولخصت توصياتها على شكل دعوة إلى «ديموقراطية التعدديـة الثقافية» (UNHDR 2004) في هذه الحالات، وفي غيرها من الحالات الأخرى استخدمت المنظمات الدولية مصطلح «التعددية الثقافية» لبطاقة شـاملة تندمج فيها السياسات الخاصة الموجهة إلى أنواع مختلفة من جماعات الأقليات، وهو استخدام سأسير عليه في هذا الكتاب.

أما بالنسبة إلى أولئك الذين يكرهون مصطلح «التعددية الثقافية» ويفضلون عليـه مصطلحا آخـر مثل «حقوق الأقليات»، «سياسـات التنـوع»، «التداخل الثقافي»، «الحقوق الثقافية»، أو «المواطنة المتميزة» فلهم حرية اسـتبداله بأي منها كما يريدون، فلا شيء مهما يتوقف على التسمية. وإنما الشيء المهم الذي قـد يكون خلافيا أكثر هو ادعائي أن المنظمـات الدولية تعزز بطريقة متميزة شـكلا متحررا من أشـكال التعددية الثقافية وحقـوق الأقليات. وأنا لا أعني بذلك فقط أن هذه المعايير تعمل داخل الالتزامات بمعايير حقوق الإنسان - بأن «لا يلجأ أحد إلى التنوع الثقافي لينتهك حقوق الإنسـان التي يضمنها القانون الدولي»، وفق كلمات «اليونسكو» التي اقتبسناها من قبل - لكن أيضا أن هذه المعايير مستلهمة من قيم الحرية والمساواة والديموقراطية الليبرالية. فالتعددية الثقافية الليبرالية ترتكز على افتراض أن سياسات الاعتراف ومساندة التنوع العرقي يمكن أن «توسـع الحرية البشـرية» و«تقوي الحقوق الإنسانية»، وتقلل من الهيراركية العرقية والعنصرية وتعمق الديموقراطية.

كان ذلك الافتراض مركزيا بالنسبة إلى الطريقة التي صاغت بها المنظمات الدولية معاييرها ومقاييسها. وللتأكد، كما سوف نرى، فقد كان للمنظمات الدولية دوافع برغماتية أكثر لأن تقوم «بشيء ما» بصدد قضايا التنوع العرقي، لكن من دون إيمان بمثل التعددية الثقافية الليبرالية، ما كان لهم أن يتبنوا المقاييس المحددة التي تبنوها، وربما ما كان لهم أن يتبنوا أي معايير أو مقاييس على الإطلاق، ولتبنوا بدلا من ذلك أدوات أكثر مرونة لكل حالة من حالات منع وحل الصراع العرقي.

وأنا أعتقد أن تبني التعددية الثقافية يمكن - في الواقع - أن يسهم في تنمية الحرية والمساواة والديموقراطية، كما سوف أناقش في الفصلين الرابع والخامس فيما بعد. غير أن همزة الوصل بين التعددية الثقافية، وهذه القيم الكامنة ليست أمرا بسيطا أو خاليا من المخاطر. فكثير من ذلك يعتمد على الظروف الأساسية وطبيعة الجماعات العرقية ذات العلاقة، ونوع السياسات قيد البحث. ولكي تكون المعايير والمقاييس الدولية مؤثرة فلا بد لها من أن تعكس وأن تعترف بهذا التعقيد. وهذا بدوره يتطلب أن نعالج المعضلات التي سبق أن ذكرتها حول طبيعة التصنيفات التي نستخدمها وشروط وتبعات حقوق الأقليات، والعلاقة بين العدالة والأمن.

* * *

إن تجربة مساندة التعددية الثقافية الليبرالية تجربة حديثة. فمعظم الإعلانات والمؤثرات المتعلقة بها لم تظهر إلا منذ نحو عشر إلى خمس عشرة سنة على الأكثر. وقد يكون من السابق لأوانه جدا أن نستخلص نتائج محددة عن التجربة وكيف سارت أو ما سوف تنتهي إليه. وأنا أعترف بأن بعض المخاوف التي أثيرها في هذا الكتاب هي مسائل نظرية تأملية. وإن كنت أعتقد أنه قد مر وقت كاف يسمح لنا بإجراء بعض التقديرات الأولية. وهناك درس واحد يمكن أن نستخلصه بأمان وهو أن التعددية الثقافية الليبرالية قد برهنت على أنها سلعة يصعب بيعها.

والواقع الصعب هو أن المحاولات التي تقوم بها المنظمات الدولية لنشر المثل العليا للتعددية الثقافية الحرة بعيدا عن الديموقراطيات الغربية قد حققت نجاحا محدودا حتى اليوم. ولم تلق هذه المجهودات خارج دائرة

النشـــطاء والمثقفـــين ســـوى آذان صماء. وحتـــى في تلك الحـــالات القليلة حيث بدا أن دول ما بعد الاســـتعمار وما بعد الشـــيوعية قد اتبعت نصيحة «المنظمـــات الدولية» لتعديل وجهتها أكثر نحـــو التعددية الثقافية، فنادرا ما كان ذلك بســـبب اقتناع قـــادة الدول بأهمية الحجة التـــي تقدمها التعددية الثقافية الليبرالية، بل بالأحرى بســـبب أن «المنظمات الدولية» قد حشـــدت قوة كافية لإلزام هؤلاء القادة بتبني سياسات لم يكونوا مقتنعين بها. ويصدق ذلك بصفة خاصة على السياســـات المســـاندة للأقليات التي تبنتها دول ما بعد الشـــيوعية تحت ضغط المنظمات الأوروبية. وعندما اعتمدت المنظمات الدوليـــة فقط على قـــوى الإقناع لدعم التعددية الثقافيـــة الليبرالية، فإنها فشلت بصفة عامة. ولم تظفر بقوة دفع إلا عندما ساند الإقناع التهديد بأن دول ما بعد الشيوعية لن تدخل الاتحاد الأوروبي أو حلف الناتو (Nato) من دون الالتزام بمعايير حقوق الأقلية (Kelley 2004).

وكالعادة، هناك اســـتثناءات لهذا التعميم، فقد لقيت المساندة الدولية لحقوق السكان الأصليين في بعض بلدان أمريكا اللاتينية نجاحا أكثر، مع انتشـــار مثل أنصار التعددية الثقافية (أو الثقافة المتبادلة كما تسمى غالبا في تلك المنطقة) على نطاق واســـع في ثقافات السياســـة المحلية. غير أن التعددية الثقافية قد استقبلت، بصفة عامة، بشكل بارد.

ربمـــا كان من المتوقع أن تلقـــى أفكار التعددية الثقافيـــة الليبرالية مقاومة من النخبة، التي لا تريد مشـــاركة ســـلطاتها مع الأقليات. لكن ما يثير الدهشـــة أكثر هو أن تلقى هذه الأفكار قليلا من المســـاندة من المعارضـــة الليبرالية أو الديموقراطيـــة أو الإصلاحية في كثير من دول ما بعد الشـــيوعية، ودول ما بعد الاستعمار، أو داخل تنظيمات المجتمع المدني التي يفترض فيها أن تكون مشتلا للإصلاح التقدمي. وحتى تلك القوى الاجتماعيـــة، المتوقع أن تكون حليفا طبيعيا للمجتمع الدولي في هذا المجال، كثيرا ما تكون فاترة نحوه إن لم تكن عدائية [12]، وافتراض أن التعددية الثقافية ينبغي أن تُرى كجزء داخلي من مســـار أوســـع في النظام التحرري والديموقراطي، لم يكن - ببساطة - مقبولا على نطاق واسع في كثير من الدول.

إن أي استراتيجية مقبولة لنشر التعددية الثقافية الليبرالية تحتاج إلى فهم مصادر هذا الشك والمقاومة. ولقد كانت أكثر الاستجابات شيوعا، لسوء الطالع، لاسيما في الصحافة الشعبية، وأيضا في بعض الأوساط الأكاديمية والدوائر السياسية، هي تلك التي أخضعت الموقف للتحليل الأخلاقي والسيكولوجي. فقد نسبت مقاومة التعدد الثقافي إلى إصرار هويات ما قبل الحداثة ومواقف النظم القبلية (في أفريقيا وآسيا) أو إلى القومية العرقية (في أوروبا ما بعد الشيوعية). والمشكلة من هذا المنظور أن كثيرا من المجتمعات ينقصها التطور السياسي للتعامل البنّاء مع مسائل التنوع، لهذا لا تستطيع تقدير جدارة نماذج التعددية الثقافية التي انبثقت داخل الأنظمة الديموقراطية «الناضجة»، ولعلاج هذه المشكلة البارزة، يلزم تأسيس برامج تعليمية لتعليم قيمة التسامح في المدارس وأجهزة الإعلام، لابتكار ثقافة متداخلة، وحوار ديني متبادل، وفهم متبادل، وبعمومية أكثر للترويج لأفكار الحداثة (وما بعد الحداثة) بشأن الهويات المتعددة والمتداخلة لتحل محل مفاهيم ما قبل الحداثة حول التضاد الثنائي الثابت بين الـ «نحن» و«الآخر».

ولا يدهشنا أن هذه البرامج كثيرا ما استقبلها المستفيدون منها على أنها تعكس موقفا أبويا متعاليا تجاه المجتمعات والثقافات غير الغربية، ومن ثم فقد استاءوا منها ورفضوها. فضلا عن ذلك، فهي لا تعالج المشكلة الحقيقية. إن معارضة التعددية الثقافية الليبرالية ليست فقط نتيجة للأحكام المبتسرة، والجهل، وكره الأجانب. فالواقع أن للتعددية الثقافية أعباء ومخاطر عديدة، وإن هذه الأعباء تتنوع تنوعا هائلا داخل المجتمعات وبين بعضها البعض. فالتعددية الثقافية لا تتحدى فقط فهم الشعوب التقليدي لهويتها السياسية والثقافية، بل أيضا مضامينها الكامنة لمسار العمل الديموقراطي، والتطور الاقتصادي، واحترام حقوق الإنسان، بل حتى الأمن السياسي - الجغرافي. فالتعددية الثقافية، في بعض الأزمنة والأماكن، يمكن أن تكون اختيارا يحمل قدرا كبيرا من المخاطرة، وهذه المضامين، لا الارتباط غير المنطقي بهويات ما قبل الحداثة، هي التي تدعم معارضة التعددية الثقافية الليبرالية في دول ما بعد الاستعمار وما بعد الشيوعية.

إن استراتيجيات المجتمع الدولي الحالية لنشر التعددية الثقافية الليبرالية لا تعالج تلك المخاوف بصورة كافية. ونتيجة لذلك، فإن كثيرا من جوانب الخطاب السياسي والقواعد القانونية التي يروج لها المجتمع الدولي يبدو ساذجا وتعسفيا، بل خطرا على كثير من الناس في دول ما بعد الاستعمار وما بعد الشيوعية، إن الحجج المعتادة للدفاع عن التعددية الثقافية الليبرالية - أكثر بقليل من تفاهات حول قيمة التنوع والتسامح - لم ترتبط ببساطة بإدراك الناس للأخطار والأعباء المحتملة التي ينطوي عليها تنظيم علاقة الدولة بالأقليات.

إن أحد أسباب فشل المجتمع الدولي في معالجة هذه المخاوف بشأن مخاطر التعددية الثقافية الليبرالية هو أنه لم يوجه انتباها كافيا إلى الطريقة التي عولجت بها تلك المخاوف في الغرب. وبقدر ما حصلت التعددية الثقافية على جذور «غير متساوية» في الغرب، فلم يكن ذلك بسبب أن للغربيين قيمة أخلاقية متميزة عن التسامح، أو فهما متطورا لطبيعة هويتهم الثقافية والسياسية. بل بالأحرى، كما سنرى في الفصل الرابع، لأن مجموعة من الظروف المواتية قد قللت من مخاطر التعددية الثقافية، مما سمح للأمم الغربية بأن تصوغ سياسات عرقية بطريقة تتفق مع حماية وتنمية قوية للديموقراطية، والرخاء الاقتصادي، وحقوق الإنسان، والأمن الإقليمي. لا تخلو التعددية الثقافية من المخاطر خلوا تاما، لكن حيثما توجد هذه الظروف المواتية فإنها تصبح «مخاطر جميلة»، مخاطر معتدلة تمكن معالجتها، ويجدر القيام بها من أجل مجتمع أكثر إنصافا وشمولا.

إن تفسيرا أكثر أمانة لأصول التعددية الثقافية في الغرب - الذي لا يركز إلا بقدر قليل على الفضائل المدنية المزعومة أو على المواقف الناضجة بينما يركز أكثر على الظروف العارضة - يساعدنا على نحو أفضل على فهم العقبات التي تقف في سبيل انتشارها في العالم، وربما حدد طرقا بناءة للتغلب على هذه العقبات، ولا بد لمثل هذا التفسير من أن يساعدنا أيضا على معالجة المعارضة طويلة الأمد للتعددية الثقافية في الغرب. بعد كل شيء، لاتزال بعض البلدان الأوروبية تنظر إلى التعددية

الثقافيـــة الليبرالية باعتبارها مخاطرة كبرى، على الأقل فيما يتعلق بأنواع معينـــة من التنوع العرقي، وقد خضعت لفترات من التراجع وردود الأفعال العنيفة، ويوحـــي ذلك بأن ظهور صلابة التعدديـــة الثقافية الليبرالية هو دائما إنجاز عارض وهش إلى حد ما، إن الحفاظ على الإرادة السياســـية والمساندة الشـــعبية للتعددية الثقافية الليبرالية، في الغرب أو مكان آخر، يعتمـــد على قدرتنا على الانتبـــاه الحريص إلى هذه المخاطر، الحقيقية أو المتصورة، وعلى إيجاد طريقة لتخفيفها.

باختصـــار، يتطلـــب النجاح طويل المدى للانتشـــار العالمـــي للتعددية الثقافيـــة تفهما أكثر دقة للظـــروف الاجتماعية والسياســـية التي تدعم وتمكـــن نماذج مختلفة مـــن علاقة الدولة بالأقليـــات، وكيف تختلف هذه الظـــروف باختلاف الزمـــان والمكان. ويحتاج كل من الخطاب السياســـي للتعدديـــة الثقافية الليبرالية والمعاييـــر القانونية الدولية لحقوق الأقليات إلى أن تتأســـس على علم اجتماع سياســـي أكثر واقعيـــة. ومن المؤكد أن ذلك ســـوف يحتاج إلى تغيرات، ليست فقط في الطريقة التي توصف بها التعددية الثقافية الليبرالية ويروج لها عالميا، بل أيضا تغيرات في توقعاتنا بصدد الأشكال والجوانب في التعددية الثقافية الأصلية التي تتناسب مع الأجزاء المختلفة في العالم.

ويعتقد بعض المعلقين أن هذه الأنواع من التغيرات سوف تنبثق تلقائيا. فلم يظهر التزام المجتمع الدولي بالتنوع إلا حديثا نســـبيا، واستطاعتنا أن نـــرى بالفعل عملية «ملء الإطار» وهي تتم عندمـــا يبدأ ممثلون مختلفون ومؤسســـات متنوعة في تعلم ما هي أنواع الخطاب والمعايير الفعالة وتحت أي ظرف، وعندما تظهر الســـوابق التي تملأ الثغرات، وتحل الالتباســـات والغموض والتناقضات [13].

غير أن رأيي الخاص هو أن هذه الصعوبات لن تحل نفسها تلقائيا، وأي محاولة لمعالجة هذه الصعوبات ســـوف تتطلب عددا من القرارات الصعبة والخلافية المثيرة للجدل بشـــأن طبيعة وهدف سياســـات التعدد الثقافي وحقـــوق الأقليات، ودور المنظمـــات الدولية في حمايتهـــا. وعلى حين أن عددا كبيـــرا من المنظمات الدولية قد تبنى خطاب التعددية الثقافية، فإن

هذا الخطاب المشـــترك يخفي خلافات عميقة حول طريقة ارتباط التنوع العرقي بقضايا حقوق الإنســـان، والدمقرطـــة والتنمية. وبالنظر إلى هذه الخلافـــات وانعدام فاعلية الخطابات والمعايير الموجودة، فإن التشـــخيص بعيـــد المدى قد لا يكون ملئـــا للإطار، بل تفريغ له، بانســـحاب المنظمات الدولية عن مشـــروع تدويل التعددية الثقافية. وكما سنرى فيما بعد هناك إشارات بالفعل إلى هذا الانسحاب.

ويوحي ذلك بأننا عند نقطة حرجة من تطور تدويل التعددية الثقافية. ولو أردنا إنجاز القوى الكامنة التقدمية في هذه العملية، فإننا بحاجة إلى تجاوز التفاهات حول قيمة «التنوع» و«التســـامح» وفحص الأسئلة الصعبة حـــول الطريقة التي ترتبـــط بها الجوانب المختلفة مـــن التعددية الثقافية بقضايا الدمقرطة، وحقوق الإنســـان، والتنمية، والأمن الإقليمي، سواء في الغـــرب أو في أي مكان آخر. وعلى هذا الأســـاس، قد نتمكن من التعرف على معايير وممارســـات أكثر واقعية وأكثر اتســـاقا للتعددية الثقافية من أجل الانتشـــار العالمي. وإلا فمن المحتمل أن نشاهد التخلي التدريجي عن التجربة الجريئة والمذهلة أحيانا، والتي اســـتمرت خمس عشرة سنة، من أجل تدويل التعددية الثقافية.

* * *

لســـتُ أهدف في هـــذا الكتاب إلى تقديم رســـم تخطيطي مفصل للمستقبل، بل بالأحرى إلى استكشاف العملية الجارية لتدويل التعددية الثقافيـــة، والتعرف على التحديـــات والخيارات الصعبـــة التي تثيرها أمامنا. وفي ســـبيل تحقيق هذه الغاية، ســـوف أبدأ في الفصل القادم بمناقشـــة الأســـباب التي جعلت المجتمـــع الدولي يهتم هـــذا الاهتمام بمحاولة تشـــكيل علاقـــة الدولة بالأقليات، خصوصـــا في فترة ما بعد الحرب الباردة. كما نـــرى أيضا أن ذلك كان من ناحية نتيجة للأخطار الناجمـــة عن النظرة التشـــاؤمية التـــي يمكن أن تفرضها السياســـات العرقية على الســـلام والاســـتقرار في دول ما بعد الشـــيوعية ودول ما بعد الاســـتعمار، بمصاحبة نظرة متفائلة بالقدر ذاته عن الطريقة التي تســـاعد بها التعددية الثقافيـــة الليبرالية في تحقيق الســـلام وتطبيع

السياسات العرقية في كثير من بلدان الغرب. ومن ناحية أخرى، فإن الأفكار المختلفة عن «أفضل الممارسات» وعن «المعايير المشروعة» التي قد طورها المجتمع الدولي في الخمسة عشر عاما الماضية تعكس هذا الخليط غير المستقر من الأمل والخوف.

في الباب الثاني، سوف أستكشف الجانب المشرق من المعادلة، بالإفصاح عن منطق التعددية الثقافية الليبرالية. عن طريق التعرف على الأشكال المختلفة التي اتخذتها التعددية الثقافية في الغرب، والدفاع عن وجهة النظر التي تقول إن سياسة التعددية الثقافية قد ساعدت بغير شك في تهدئة السياسات العرقية، كما عمقت الديموقراطية ودعمت حقوق الإنسان، ومع ذلك فإنني أذهب أيضا إلى أن نجاحها من هذه الزاوية قد اعتمد على عدد من الظروف الخاصة جدا المرتبطة بالصلابة الديموقراطية، وثورة حقوق الإنسان، والأمن الجغرافي السياسي. لقد ساعدت طبيعة هذه الظروف الهشة الوعرة في تفسير اختلافات ما سُجل حول التعددية الثقافية الليبرالية بالنسبة إلى الجماعات المختلفة في البلدان الغربية المختلفة.

وسوف أستكشف في الباب الثالث كيف حفزت المخاوف من عدم استقرار الصراع العرقي في دول ما بعد الشيوعية ودول ما بعد الاستعمار المنظمات الدولية لتصبح أكثر انشغالا بميدان علاقة الدولة بالأقليات، وبصفة خاصة للترويج للتعددية الثقافية الليبرالية. ولقد كان من الواضح على الدوام أن تفاصيل النماذج الغربية الخاصة للتعددية الثقافية الليبرالية لا يمكن ببساطة أن تنقل إلى بلدان أخرى ذات تواريخ مختلفة، وديموغرافيات مختلفة، وبنى دستورية مختلفة. ومن هنا، كانت مهمتنا هي محاولة التعرف على الجوانب الأكثر عمومية للتعددية الثقافية الليبرالية وما يكمن وراءها من أخلاقيات واستراتيجيات ومبادئ، وعلى هذا الأساس نضع دروسا يمكن تعميمها، وقد ثبت أن تلك مهمة صعبة بشكل غير عادي، وكثيرا ما تعكس النتائج خليطا ينطوي على مفارقة من التفاؤل والتشاؤم. ولقد قدم المجتمع الدولي في بعض الأحيان أمثلة ساذجة، طوباوية في الأعم، لأخلاقيات التعددية

الثقافيـــة الليبرالية تطلب من المواطنـــين ألا يخافوا من التنوع العرقي. من ناحيـــة أخرى، فإن ما يدفع المجتمع الدولي نفســـه هو الخوف من عدم اســـتقرار الصراع العرقي، ولقد أثر ذلك في طريقة تحديد فئات الأقليات التي تســـتحق أن تطالب لنفســـها بأنواع مختلفة من الحقوق، والظروف التي تستحق بموجبها أن تطالب بذلك. ولكي يمنع السياسات العرقية من «الخروج عن السيطرة»، فقد حاول المجتمع الدولي أن يحد من الأشـــكال «الشـــرعية» للتعددية الثقافية ويقيدها بطريقة لا تعكس دائمـــا، بل ربما تناقض، مبادئ التعدديـــة الثقافية الليبرالية. ولقد كان ذلك إلى حد ما ضروريا ومناســـبا، نظرا إلـــى أن الظروف التي مكنت الغـــرب مـــن تبني التعدديـــة الثقافية لا تتوافر حتـــى الآن في كثير من دول ما بعد الشـــيوعية، ودول ما بعد الاســـتعمار، غير أن النتائج غير المقصـــودة كانت مقاربة متناقضة لتطبيق السياســـات العرقية، وأكدت مطالب الأقليات وأحبطتها في الوقت نفسه، فخلَّفت طوق نجاة مملوءا بالمتناقضات، والمعايير المزدوجة، والنتائج الضالة. وهذه بدورها تخلِّف الإحساس في كثير من دول العالم بأن الترويج الدولي للتعددية الثقافية الليبرالية تنقصه الأسس المبدئية.

أستكشف هذه المسائل الملغزة في سياقين رئيسيين: الأول المحاولة التي تقوم بها المنظمات الدولية لتطوير نماذج ومعايير تتعلق بدراسة «الأقليات القومية» في أوروبا، لاســـيما بواســـطة المجلس الأوروبـــي ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا (الفصل السادس)، ومحاولة المنظمات الدولية لتطوير المعايير والمقاييس الخاصة بدراســـة «الســـكان الأصليين» على المســـتوى الدولي، لاســـيما بواســـطة الأمم المتحدة والبنك الدولـــي ومنظمة العمل الدولية (الفصل السابع)، وســـوف أناقش في الحالتين أن النجاح المبدئي في خطر بســـبب الفشـــل في تفهم المعضلات الكامنة حـــول التصنيفات والظروف والأهداف.

وأنتهـــي من ذلك كلـــه إلى بعض الاقتراحات التجريبية بشـــأن الطرق لإعادة تصور الانتشـــار العالمي للتعددية الثقافية الليبرالية. ولست أعتقد أن هذه المشـــكلات يمكن حلها تماما، لكن يمكن التعامل معها بشـــكل أكثر

نجاحـــا، من ناحية عن طريـــق إعادة التفكير فـــي أدوار الممثلين الدوليين المختلفين في دعم التعددية، ومن ناحية أخرى عن طريق إعادة التفكير في المضمون الجوهري للخطابات والمعايير التي يُروج لها. فنحن في حاجة إلى تغييرات في كل من الرسالة والرسل.

ومازلت مقتنعا بأن التعددية الثقافية الليبرالية هي أفضل أمل لبناء مجتمعات عادلة وشـــاملة حول العالم، وأن انتشـــارها لا يمكن تحقيقه من دون عون من المنظمات الدولية، ولهذا الســـبب وحده علينا أن نتخذ خطوة إلى الوراء لكي نتأكد من أن المجهودات الهائلة التي بذلها المجتمع الدولي في هذا المجال خلال خمس عشرة سنة ماضية لاتزال تسير في مجراها الصحيح.